بعض العوائد بنات العقائد

آراء الاقدمين في الموت والدفن

كنتُ يافعاً اتنزَّه مع رفقائي بين جنّات طرابلس الشام فوقفنا في ساحة نضيرة تحت جميزة كبيرة وامامنا اجداث حقيرة لا يحتاج منظرها الى برهان على انها مقبرة يدفن فيها الغريب الذي لا يملك مدفناً في مدافن المدينة — فسمعنا صوتاً رخيماً ينشد من خلف القبور شعراً متين المبنى خفيف المعنى لا ازال اذكر شطراً منهُ «خففِ الوطء انا غرباء»

وكنت كلما ارقى درجةً في سلَّم العمر واقرأُ شيئاً من كتب الاوائل والاواخر عن الروح والاموات والمدافن يخطر على بالي المصراع السابق ذكرهُ فأخاطب نفسي هل اراد الشاعر مجازاً لطيفاً ام انهُ ممن يعتقد ان الروح تظلُّ ساكنة في اللحد مع الرُّمة ويطلب من عابر الطريق ان يتئد في سيرهِ حتى لا يكون ثقيلاً عليها فيضنيها

قرأتُ اخيراً كتاباً لاحد علماء فرنسا واساتذتها المشهورين فستل ده كولنج أثبت عندي انَّ اكثر العوائد اصلها عقائد وان الشعر المذكور ربما كان مجازاً عند قائلهِ لكنهُ حقيقة في عقائد الاوائل . فالباحث في تاريخ الانسان يجد انهُ منذ القدم وقبل ان يستنير بالبحث والفلسفة اعتقد انَّ الروح لا تفنى وانَّ الموت وانحلال الجسم تكيُّف من تقلبات الحياة فكل حياة تفنى ويعقبها انتقال الى وجود ثانٍ . لكن تنوَّعت ظنونهم في المصير هل تنتقل النفس الناطقة الى جسم آخر لتحييهُ ام تنتقل الى عالم آخر غير منظور ام تبقى دفينة مع الجسم في اللحد

فانتقال النفس من جسم بالٍ الى جسم نامٍ اي التقمُّص لم يكن من رأي الشعوب الآرية القاطنة في الهند واوربا ومدائح الفيدا الدينية تنقض هذه الفكرة

وانتقالها الى الفلك الاعلى مصدر النور تصوَّرهُ المرء لمَّا رغب في تشييد اعظم مبدإ ادبي وهو اكرام ذوي الفضيلة ليُقتدى بهم ويُنسج على منوالهم فقرَّر ان نفس الفقيد العظيم في اعمالهِ وبرّهِ وتقاهُ تطير طاهرةً حين انحلال الجسم الى عليين فتسكن هناك مشمولة بالسعادة مطوَّقة بالهناء

لكنَّ الرأي الاعم قبل ان اختمر عقل الانسان رجَّح ان النفس تظلُّ دفينة تحت الارض في اللحد الذي دُفنت فيهِ الجثة وانها لا تنفصل عن الجسم شريكها في الحياة ولو

الجثة تراباً او احترق رماداً كما جاء في شعر الشاعر الروائي اليوناني اوريبيدس والفيلسوف الخطيب الروماني شيشرون ومن ذلك نشأت عادة بناء المدافن رحيبة مزخرفة على قدر بانيها وخزن المآكل فيها حتى تغتذي نفس الفقيد

وشعائر الدفن عند القدماء تثبت بأجلى بيان اعتقادهم بان القبور مساكن الارواح . فمدافن المصريين العظيمة البديعة ناطقة بموجوداتها وتصاويرها ونقوشها ومومياتها بهذا الرأي . وقال فرجيليوس اكبر شعراء الرومان حين وصف جنازة بوليدور « ايها اللحد اننا نأتمنك على روح فقيدنا الحية »

وورد مثل هذا المقال في كتب الشاعر أُفيديوس والفيلسوف بلينيوس الرومانيين وذكر شيشرون « ان قدماء الرومان اعتقدوا الوهية الارواح » وقال الشاعر اليوناني اسكيلا خطاباً من ابن الى ابيه المتوفى « يا روح ابي المتألهة المدفونة تحت الثرى » وقال اوريبيدس عن ألسست في التراجيدا المشهورة « سيقف العابر بجانب لحدها ويقول دفينة هنا روح الهية سعيدة » واطلق الرومان على الطيف وصف معبود فقالوا Dieux—Mânes وخاطب شيشرون الرومان بقوله « قدموا القرابين الى الارواح فانها بشر فارقت الحياة واحترموا حقوقهم الالهية فما القبور الا هياكل مقدسة »

ويُرى مثل ذلك في كتب الهنود كما ورد في مدائح الفيدا وفي كتاب شرائع مانو الذي قال بان عبادة الارواح من اقدم العادات . وظلت هذه العادة مبسوطة الجناح ولو سام لرقها مذهب التقمص . واضطر مؤلف هذه الشرائع رغماً عن التناقض بين هذا المذهب وتلك العادة ان يقرّر بقاءها في كتابهم المقدس لرسوخ اصولها في عقول الاهلين. وهذا اعظم دليل على انّ مظاهر العبادة التي ألفها اجيال من الناس تطول آجالها ولو شاخت ودرست العقائد التي ولدتها . ولا يزال الهنود حتى اليوم يقدمون القرابين الى ارواح اسلافهم

وكانت العادة عند قدماء اليونان والرومان ان يخاطبوا ثلاثاً روح الفقيد ساعة يواروبها التراب قائلين « عسى ان يطيب ثراك وتخف وطأته عنك » ومنه قولنا حتى الآن « رضي الله عنهُ وطيّب ثراه » فتغيرت العقيدة ولبثت العادة . فمن منا يعتقد الآن ان روحاً خالدة تسكن بعد فناء الجسم في لحد ضيق تحت الثرى

وما اكتفى القدماء بوضع المآكل في القبر مع الفقيد بل قرنوها بكلما زعموا انهُ

بعوزهُ كالملابس والسلاح والآنية وسقوا ضريحهُ برحيق فاخر ونحروا عليهِ الجياد والارقاء زعماً انهُ يحتاج الى خدمتها بعد المات كما كان في الحياة . وذكر اور يبدس الشاعر في تراجديا هكوبا ان عظماء قواد اليونان بعد فوزهم على تروادة عادوا الى بلادهم وكلٌّ منهم يقود جارية اختارها من خيار الاوانس الترواديَّة فاعترضت روح اخيلاً بطلهم الاعظم المتوفى وطلبت نصيبها من السبي فأُعطيت بروكسيلين غادة رائعة الجمال من خيار اسرة الملوك بين كان اخيلا احبها في حياتهِ

وكانت الهدايا توسل الى الاموات كما ذكر المؤرخ توسيديدس اليوناني . وبولغ في ذلك حتى حظر المشترع سولون ان يدفن مع الميت اكثر من ثلاثة اثواب كما ورد في مقال فلوطرخس عنهُ . وتأسف المفكر الحكيم لوقيانوس على بلاء الملابس تحت الارض بلا فائدة للاحياء . وظلت هذه العادة جارية حتى في زمن الحضارة الرومانية فكم دُفن من التحف والملابس مع يوليوس قيصر وقد ذكر ذلك اكبر مؤرخي الرومان تاشيتوس

انَّ بيتاً من الشعر المكين يبقى على الزمان اكثر من بيت مبني بحجر الصوَّان وينير للخلف ما ادلهمَّ من عادات السلف فقصيدة من الشاعر اليوناني بندار مضى عليها الفان وخمسمائة سنة تنبئنا عن عادات اسلافهِ من قدماء اليونان في هذا الشأن وعقائدهم قال « ان احد عظماء قومهِ واسمهُ فريكسوس فرَّ من وطنهِ مضطرًّا وحلَّ في بلاد الكولشيد (جنوب جبال قوقاف) وتوفي فيها فطار طيفهُ الى صديقهِ بلياس يستنجدهُ ليبادر الى محل غربتهِ ولينقل رمتهُ فان روحهُ غير المنفصلة عنها لا يقرُّ لها قرار ان لم تعد الى تربة الوطن ومدفن العائلة »

***

نشأ بناء المدافن من هذه العقيدة فالانسان الخالي من قبر خاص تظلُّ روحهُ حسب زعمهم هائمة على وجه الارض بدون راحة . وهذه الروح الهائمة سماها العرب جنًّا كما ذكر محيط المحيط « قال ابو البقاء ظاهر كلام الفلاسفة ان الجنَّ والشياطين هم النفوس البشرية المفارقة عن الابدان بحسب الخير والشر » وذكر ابو وهب « ان الجنَّ منهم يأكلون ويشربون »

والنفس الهائمة بدون مأوى تسرح في قفر الشقاء والضنى تدفعها السآمة ويجرُّها الغضب الى الانتقام من الاحياء فترشقهم بسهام الاذى وتصبُّ عليهم سيول البلايا

حتى يهدأ روعها بدفن الجسم المنفصلة عنهُ في لحد خاص به ويُقدَّم لها ما كانت تحتاج اليه في حياة الجسم حتى يهنأ بالها و يبقى الميت سعيداً

ذكر المؤرخ سويتون مؤرخ القياصرة ان بدن القيصر كاليغولا الظالم الغاشم دفن في الارض بعد قتله الناس به بلا اكرام ولا احترام للعقائد المألوفة فظلت نفسهُ هائمة تظهر من آن الى آخر للاحياء بشكل مخيف حتى نالوا رضاها بنبش الجسم من تربته واجراء الشعائر المألوفة له

ولقد كان الآريون القدماء يخافون من تقصير الاحياء بواجباتهم لم بعد المات — قال هوميروس شيخ الشعراء وإمامهم في قصيدته الشهيرة بالالياذة على لسان بطل تروادة هكتور حين اصاب منهُ اخيلا الضرغام مقتلاً والقاهُ صريعاً « أناشدك بكل يعزُّ عليك بحياتك و بأهلك ان لا تلقي جسمي طعاماً لكلاب سفنكم فاقبل ما يبذلهُ لك والدي من المال وردَّ لهُ جثماني حتى تجرى لهُ رسوم الاحتفال المألوفة » او كما في ترجمة البستاني

فقال بغصة الحتف «بروحك مصرعي بكفي بحرمة والديك وركبتيك عليك بالعطف
وخذ ما شئت من ابويَّ من ذهب ومن صفر فلا تخلو الكلاب بجثتي في ذلك الجرف
وجد لهما بجسمي يذهبان به لصرحهما فتحرق اعظمي وعليَّ يهمرُ وابل الطرف »

وورد مثل ذلك في رواية انتيغونا للشاعر صوفوقليس حيث قال انها اقتحمت الموت حتى لا يبقى اخوها بلا دفن

وكان من الدعاء على الاعداء كما ذكر فرجيليوس اشعر شعراء الرومان قولهم عسى يبيت جسمهُ بلا مأوى بعد الفناء . وظلَّ هذا الزعم سائداً رغماً عن رقي الافكار وتنوُّر الالباب حتى ان عامة الشعب في اثينا طلبت من الحكومة تنفيذ العقاب على امراء البحر الذين كان شغلهم الشاغل في المواقع غلب الاسطول والتنكيل بالعدوّ غير مبالين باقامة الشعائر للاموات من النوتيين وكانوا يشتمونهم عوضاً من الشكر والثناء لاستبسالهم في انقاذ الوطن . وهكذا حال العامة الغبيَّة في كل زمان ومكان تنسب الكفر والالحاد الى كل من ينصرها اذا مسَّ طرفاً من شعائرها فاتهموا عظماء قوادهم انهم تلامذة الفلاسفة الذين لا يعتقدون باتصال النفس بالجسد بعد الوفاة . جاء ذكر ذلك في تاريخ اليونان للمؤرخ ز يتوفون

وذكر اسكيلا واوريبدس وصوفوقليس شعراء اليونان ان حكومات اقدم المدن اليونانية كانت شرائعها تحظر دفن المجرمين حتى تظلَّ ارواحهم هائمة تعبة عقاباً لهم .

ووصف فرجيليوس في قصيدة الأَنابد وهي الدرّة اليتيمة في اشعار الرومان كيف كانت الشعوب اللاتينية تعتقد ان فقيدهم تحت الثرى يحتاج الى الغذاء فقال « لا تزال حتى الآن العادة جارية بالتردُّد على المقابر وذوو الفقيد يأخذون معهم أكاليل من الازهار الجميلة يطوّقون بها الضريح ويقدمون عليهِ حلوى وفاكهة وملحاً ويصبون عليهِ اللبن الحليب والخمر المعتّقة واحياناً دم الضحية . وقد استمرّت هذه العادة في بلادنا الشرقية على شكل آخر واعتقاد مخالف تماماً لاعتقادهم فالشرق مع اعتقادهِ بخلود النفس وصعودها بعد فناء الجسم الى المحل الارفع الذي هبطت منهُ لتُثاب او تعاقب في النعيم او الجحيم ظلّ معتاداً على زيارة المقابر من حين الى آخر وتأخذ السيدات الاطعمة والاشربة معهنّ يقضين نهارهنّ مجتمعات بين الاضرحة . فشتّان بين السابقين واللاحقين اولئك كانوا يأخذون الاطعمة والاشربة لامواتهم فيسكبون الاشربة على الضريح وحواليهِ ويلقون المآكل من ثقب متّصل بداخلهِ وتذهب نساء الشرق في يومنا الحاضر لتذكار الفقيد في المقابر حاملات ما طاب من المآكل لغذائهنّ لا لغذاء الفقيد . وقد حصل الافراط في نوع الزيارة حتى انتقد عليها كثيرات من كرام العقائل . وكما آخذتْ على هذه العادة انها اصبحت مجمّة للاجتماع والملاهي كذلك انتقدها المفكّرون من الاوائل قال الفيلسوف لوقيانوس هازئاً « يتوهم الناس ان الارواح تنبعث من الارض لتأكل التقدمات وتشرب المعتّقات المبذولة حوالي الضريح . ما قولك في هذه العقول اتظلّ الروح على الطوى والظمإِ معذّبة اذا حُرمتْ منها ؟ »

فنحن اليوم في عصر النور نستحسن ما قال لوقيانوس ونستصوب جرأتهُ الادبية في عصر كانت فيهِ هذه العادة بنت العقيدة — ويجب علينا استصواب مظاهر الفكر وتخطئة كل من يهيج العامة ضد المفكرين فلا ترقى بلاد تقيد الفكر عن انتقاد ما يراهُ سدّاً مانعاً للتقدم وضرراً على هيئة الاجتماع . فالحقيقة بنت البحث ولا تقدح شرارتها الاّ على زند الاحتكاك — ولو أُلجمت افكار الفلاسفة من مثل لوثيروس وغليليو وفولتر وداروين وغيرهم الذين أُقيمت لهم النصب والتماثيل في بلاد النصرانية رغماً عن انتقادهم الشديد على شعائرها وكتاباتهم المنافية لبعض عقائدها لكبا جواد التمدن اي كبوة — حذارِ حذارِ من الضغط على العقول ان كنّا نريد ادراك المعالي بين الامم — رحم الله قاسم بك امين كم افاد البلاد بجرأته الادبية

الاسكندرية ديمتري خلاط